(٣)
أحـــزان آل البيت

عاصرت السيدة زينب رضى الله عنها الأحداث التى حدثت فى خلافة عثمان بن عفان..

وقد كان والدها أحد المرشحين الستة لخلافة الفاروق عمر.. إلا أن الأمر استقر لعثمان.. واستقبل الناس عصرُ عثمان فى أول الأمر استقبالاً حسنًا.. فلم يكن عثمان بشدة عمر.. بل كان سهلاً لينًا فأحبه الناس.. كما أن الفتوحات الإسلامية نشطت فى أول عهده إتمامًا لما قام به الفاروق.. بل أنشئ فى عهده أول أسطول عربى جابه أسطول الرومان وهزمه فى معركة «ذات الصوارى».

وكان تاريخ عثمان تاريخ مشرق مجيد.. فقد كان شديد السخاء، بذل من ماله الكثير، ويكفى أنه جهز جيش العسرة بألف بعير وخمسين فرسًا، وما أكثر ما قدم للدعوة الإسلامية من مال، وقد روى عن ابن عباس كما روى ذلك ابن الأثير فى (أسد الغابة) أن قوله تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧]

نزلت فى عشرة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة

والزبير وسعد، وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله ابن مسعود.

وكان عثمان أيضًا من كُتّاب الوحى.

والتاريخ لن ينس له أن ضوء الإسلام قد امتد فى عصره إلى أرمينيا والقوقاز وغير ذلك من الأماكن التى امتد إليها الفتح الإسلامى.

إلا أن الفتنة الكبرى قد اندلعت بعد سنوات من حكمه، نتيجة روافد كثيرة.. منها أمره أن يتولى عبد الله بن أبى سرح بدلاً من عمرو بن العاص، وكان عبد الله بن أبى سرح أخوه فى الرضاعة، كما أن عبد الله بن أبى سرح هذا كان النبى عليه الصلاة والسلام قد أباح دمه بعد أن ارتد عن الإسلام، ثم استشفع بعثمان ـ رضى الله عنه ـ وعفا عنه الرسول الكريم.

وكان الرسول قد صمت عندما دخل عثمان ومعه عبد الله لعل أحدًا من أصحابه يقوم فيقتله.. وطال الصمت، ولم يتحرك أحداً.. وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه.

ـ ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه.. عندئذ سأله أحد الأنصار.

ـ هلا أومأت يارسول الله!

فقال عليه الصلاة والسلام:

- لا ينبغى للنبى أن يكون له خائنة الأعين..

كما أن الروافد التى مهدت للثورة على عثمان كثيرة منها أنه أباح لبعض الصحابة التنقل بين الأمصار، وكان عمر يرفض ذلك خشية الفتنة.. وقد أدى ذلك إلى ثراء عريض للبعض، وما تبع هذا الثراء من ترف، فعرفت المجتمعات فى الجزيرة العربية الغناء والطرب مما أثار عليهم حفيظة الفقراء.. بجانب الفتنة التى أحدثها عبد الله بن سبأ الذى أطلق عليه الرواة ابن السوداء، وهو يهودى من اليمن ادعى الإسلام ليكيد له.. وكانت له آراء هدامة منها قوله:

- عجبت ممن يصدق برجوع المسيح ولا يصدق برجوع محمد.

وكان يردد: إذا كان لكل نبى وحى، فوحى محمد هو علىّ.. وبالتالى فهو أولى بالخلافة وأحق من الآخرين.

ومن الروافد للفتنة أيضًا توليته أقاربه للمناصب الهامة.. كل هذه الأمور وغيرها أهاجت الناس، وأدت إلى الفتنة الكبرى التى راح ضحيتها ثالث الخلفاء الراشدين.

أو على حد قول جلال الدين السيوطى:

«قتل عثمان مظلومًا.. ومن قتله كان ظالمًا ومن خذله كان معذورًا».

ورغم أن عثمان كان قد تزوج ابنتى رسول الله «رقية وأم كلثوم» وهما (خالتا السيدة زينب).. وابنتا عم على بن أبى طالب، إلا أن عثمان رضى الله عنه كان عاتبًا على «علىّ» عندما بدأ الثوار يتدفقون على المدينة.. رغم أن «عليا» لم يحرض أحدًا، ولكن الأمور كانت تسير فى طريق مسدود.

إلا أن عثمان كان عاتبًا على علىّ بن أبى طالب.. وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلى وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان:

ـ والله يا أبا الحسن ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك.

فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لأجد منك خلفًا.. ولئن بقيت لا أعدم طاغيًا يتخذك سلمًا وعضداً بعدك كهفًا وملجأ لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه..

فأنت منى كالابن العاق من أبيه. إن مات فجعه وإن عاش عقه. فأما سلم فنسالم وإما حرب فنحارب.. فلا تجعلنى بين السماء والأرض. فإنك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفًا. ولئن قتلتك لا أجد منك خلفًا. ولن يلى هذا الأمر بادئ فتنة.

فقال علىّ:

إن فيما تكلمت به لجوابًا ولكنى مشغول بوجعى. فأنا أقول كما قال العبد الصالح: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف: ١٨].

فقال مروان: إنا والله إذن لنكسرن رماحنا ولنقطعن سيوفنا ولا يكون فى هذا الأمر خير لمن بعدنا.

فقال عثمان: اسكت ما أنت وهذا.

وعندما أحكم الحصار حول بيت عثمان حاول علىّ بن أبى طالب فك الحصار عن الخليفة وقال للناس الذين منعوا عن الخليفة الطعام والشراب.

أيها الناس: إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين. لا تقطعوا عن الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى.. وما تعرض لكم هذا الرجل فيما تستحلون حصره وقتله!

ولكن الثوار لم يستمعوا للإمام.. وانتهى الحصار باستشهاد ثالث الخلفاء الراشدين.

وبايع الناس الإمام علىّ خليفة للمسلمين.

وانتقل الإمام إلى الكوفة لتكون مقر خلافته.. وذهبت معه السيدة زينب رضى الله عنها وزوجها.

كانت السيدة زينب ترقب هذه الأحداث، وتتابع ما يجرى.. ولكن لم يكن لها دور فى هذه الأحداث.. ولكنها كانت تألم لما يحدث من أمور تفتت وحدة المسلمين وعندما تولى والدها الخلافة.. لم يهدأ يومًا.. ولم يستقر يومًا.. فقد اندلعت الأحداث، وتفجر الموقف فى العالم الإسلامى.. واندلعت الحرب الأهلية بين المسلمين، وتوقفت الفتوحات الإسلامية.

والسيدة زينب وهى تعيش مع والدها الإمام.. وترى ما ترى من أحداث.. وترى متاعب والدها وما يلقاه من تمرد وخروج عن الشرعية كان يؤرقها ويثبر أحزانها كما كان يثبر أحزان أخويها الحسن والحسين.

فها هى السيدة عائشة وطلحة والزبير يخرجون على الإمام ويواجههم فى معركة الجمل الذى ذهب فيها عشرات المئات من ضحايا المسلمين.

وخرج على الشرعية معاوية بن أبى سفيان وكان حاكمًا على الشام منذ خلافة الفاروق، فأحكم سيطرته على الشام،

وعندما عزله الإمام رفض هذا العزل بحجة أنه يريد الثأر من قتلة عثمان. . وكانت معركة (صفين) الذى كاد أن ينتصر فيها الإمام لولا خدعة رفع المصاحف على أسنة الرماح، وخدعة التحكيم، حيث اختار معاوية الداهية عمرو بن العاص، واختار على أبا موسى الأشعرى واتفق الاثنان على خلع كل من علىّ ومعاوية، وأن يُترك الأمر شورى بين المسلمين لاختيار خليفتهم.

وأعلن أبو موسى الأشعرى خلع الإمام وأعلن عمرو تثبيت معاوية.

ويذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص كان حاضرًا يوم إعلان الحكمين أمرهما فقال لأبى موسى:

ـ ما أضعفك عن عمرو ومكائده!

فقال أبو موسى:

ـ فما أصنع. . وافقنى على أمر ثم نزع عنه.

فقال ابن عباس:

ـ لا ذنب لك يا أبا موسى الذنب لمن قدمك فى هذا المقام.

فقال:

ـ غدر فماذا أصنع؟

فقال ابن عمر:

ـ انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة.. صار إلى رجل لا يبالى ما صنع وإلى آخر ضعيف.

وعندما قرر الإمام مجابهة معاوية خذله الخوارج الذين رفضوا التحكيم وخرجوا على الإمام.

واشتدت هموم الإمام..

واشتدت هموم آل البيت..

فأتباع الإمام يناقشونه فى كل صغيرة وكبيرة.. على عكس معاوية الذى كان أتباعه أشبه بالخاتم فى أصبعه.

حتى أن الإمام قال للناس عقب خدعة التحكيم.

«الحمدلله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل.. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. أما بعد:

فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم.. ولقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة بأمرى.. ونحلت لكم رأيى.. لو يطاع لقصير أمر، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت وأياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمـــرى بمنعرج اللـــوى

فلم يستبينوا الأمر إلا ضحى الغد

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى

مـكان الهدى أو إننى غير مهتـد

وهل أنا إلا من غزيـة إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشـد

وتتابعت هموم الإمام وآل البيت..

الخوارج أخذوا يناصبونه العداء..

وشيعته تتخاذل عنه..

ومعاوية يزداد قوة ونفوذا..

وكان عليه أن يحارب الخوارج.. ويحارب جيش الشام الذى يقوده حاكمه القوى معاوية بن أبى سفيان.

وكان الأمر يسيرًا لو أن أتباعه من أهل العراق يطيعون أوامره ويمتثلون لقراراته.. ولكنهم على العكس من ذلك تمامًا.. إنهم يجيدون الجدل.. ويثيرون المشاكل.. ويضعون أمامه العراقيل.

وكانت ظروف الحياة قد تغيرت أيضًا.

فالإمام يريد أن يعيد الأيام إلى ما كانت عليه أيام الرسول والشيخان.. أيام الطهر والنقاء والعمل للآخرة.. والحياة الجديدة.. بعد الانتصارات والغنائم واتساع رقعة الدولة وتدفق المال.. تغرى الناس إلى التكالب على الحياة والاستمتاع بمباهجها.. وهذا ما جعل كفة معاوية ترجح بعض الشيء.

الإمام لا يعرف أساليب المكر والدهاء والخديعة فهو متمسك بقيم الدين وفضائله.. بينما كان معاوية يجيد فن المراوغة والدهاء والوصول إلى أهدافه بأى وسيلة.

وشعر الإمام بأن الأمور تسير فى طريق وعر.

وأصحابه يتخلون عنه، حتى ملّ هؤلاء المتخاذلين من أتباعه.. حتى أنه واجه الناس فى الكوفة وقد تخاذلوا عن نصرته.. ووضع المصحف على رأسه وقال:

«اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه (المصحف) فاعطنى ثواب ما فيه.

اللهم إنى مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبعضونى، وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تكن تعرف لى.

اللهم فأبدلنى بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً منى، اللهم أمت قلوبهم موت الملح فى الماء».

إلى هذا المدى بلغ الحزن بالإمام.

وكان هناك ثلاثة من الخوارج قد اتفقوا على قتل الإمام على ومعاوية وعمرو بن العاص.. واتفقوا على موعد محدد لقتل الثلاثة وهو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠هـ.

وكان المتآمرون الثلاثة هم:

عبد الرحمن بن ملجم ليقتل الإمام..

والبرك بن عبد الله ليقتل معاوية..

وعمرو بن بكر ليقتل عمرو..

ولم ينجح البرك بن عبد الله فى قتل معاوية فالضربة لم تكن قاتلة.

وتخلف عمرو بن العاص، فضرب الرجل من صلى بالناس ظناً منه أنه عمرو.. وكان اسمه خارجه.

بينما أصاب سيف عبدالرحمن بن ملجم المسموم الإمام، فتسبب فى قتله بعد فترة وجيزة.

وقبض على ابن ملجم، وأخذوه إلى الحسن.

وخرجت أم كلثوم بنت الإمام على.. والتى كانت زوجة لعمر بن الخطاب، وعلمت بما حدث لوالدها فقالت لابن ملجم.

ـ أى عدو الله.. لا بأس على أبى، والله يخزيك.

قال: على من تبكين. والله لقد شريت السيف بألف وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم أحد!

قالت أم كلثوم وهى تبكى أباها:

ـ لا بأس على أمير المؤمنين.

قال لها هذا الأحمق الغبى:

ـ ما هو أمير المؤمنين ولكنه أبوك.

ووسط هذه الظروف البالغة الأسى.. جاء الطبيب ليرى جرح الإمام، وعرف أنه لا أمل فى الشفاء..

وسأل الناس الإمام:

ـ أنبايع الحسن؟

قال لهم:

ـ ما آمركم ولا أنهاكم.. أنتم أبصر بأموركم.

وكرروا السؤال فأجاب:

« لا . . أترككم كما تركككم رسول الله. فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله».

وطلب الإمام أولاده وأوصاهم أن يتركوا له الحكم فى قاتله إن شفاه الله، فإن استشهد فيقتل ولا يمثل به.

* * *

هذه هى الأحداث التى مرت بالإمام وآل بيته.

ولابد أن السيدة زينب رضى الله عنها. . عانت كما عانى والدها وإخوتها الحسن والحسين وأم كلثوم.

إنها أمور بالغة الأسى والصعوبة والأحزان.

فالإمام. . وآل بيته عانوا ما عانوا طوال مدة الخلافة التى استمرت أربع سنوات وعدة شهور. . لم يهدأ له فيها بال. . ولا عرف طعم الاستقرار.

ولا أحد يدرى بما ستكون عليه الحياة لو لم تحدث هذه الأحداث التى حدثت فى عهد الإمام. . !

لا شك أن الأيام لو صفت له لكانت امتداداً لأيام الرسول والشيخان. . فيها جلال الإيمان وروعة العدل، وألق الانتصارات.

ولا شك أن وصيته التى أوصى بها قبل أن يلاقى ربه مثالاً لعظمة الإمام.. وهذه الوصية أوصى بها أولاده.. ومنهم بالطبع السيدة زينب رضى الله عنها.

قال الإمام فى وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به على بن أبى طالب:

« أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدى بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا.. فإننى سمعت أبا القاسم ﷺ يقول:

إن صلاح ذات اليمين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب.

الله الله، فى الأيتام فلا يضيعن بحضرتكم.

والله والله فى جيرانكم.. فإنهم وصية نبيكم ﷺ ما زال يوصى بالجار حتى ظننا أنه سيورثه.

والله الله فى القرآن. فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم.

والله الله فى الصلاة، فإنها عمود دينكم.

والله الله فى بيت ربكم فلا يخلو ما بقيتم.

والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

والله الله فى الزكاة فإنها تطفئ غضب الرب.

والله الله فى ذمة نبيكم (أهل الكتاب) فلا يُظلمن بين أظهركم.

والله الله فى أصحاب نبيكم، فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم.

والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم.

والله الله فيما ملكت إيمانكم.

الصلاة الصلاة، لا تخافن فى الله لومة لائم.. فإنه يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم.

وقولوا للناس حسنًا كما أمركم الله.

ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيولى الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق.

وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.. واتقوا الله إن الله شديد العقاب.. حفظكم الله من أهل بيت.. وحفظ فيكم نبيكم.. استودعكم الله. وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله».

بهذه الوصية الغالية أوصى الإمام أولاده..

ليس فى هذه الوصية تكالب على دنيا، ولا جرى وراء ثراء أو نفوذ أو جاه.. ولكنها كلها حسن الخلق مع الله ومع الناس، والعمل بكتاب الله وسنة خاتم رسله وأنبيائه.. والاقتراب مما أحل الله، والبعد عما حرم الله.

إنه رغم آلام الجراح، والوهن الذى أصابه من الطعنات الغادرة.. إلا أنه لم يخرجه الغضب عن طوره.. فلا طلب من أولاده الانتقام من قاتله، ولا أن تخضب أيديهم بدمائه بل كانت وصيته الجليلة كيف يكونون مع الله، ويعيشون له وبه.. فلا يأذون جارًا،.. ويحافظون على الصلاة والصيام والزكاة وكل فرائض الإسلام.

غرس فى أولاده القيم والفضائل الإسلامية الرفيعة وكانت آخر كلماته قبل أن يوارى جسده التراب ترديده: لا إله إلا الله. فلم يكن غريبًا أن يشب أولاده على حب الله ورسوله، والإيثار على النفس، والتضحية بالروح فى سبيل الله.

* * *

ووسط الظروف الصعبة التى مر بها الإمام والتى انتهت باستشهاده، حرص أولاده الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم أن يكونوا كما كان والدهم يتمنى لهم.. وأن يكونوا قدوة حسنة للمؤمنين.. فهم أولاد فاطمة الزهراء.. وهم حفدة خاتم الأنبياء والمرسلين، خير من سارت له على الأرض خطى.

* * *